



أريد أن أقبل رأس كل سوري أو فلسطيني تعرض للإهانة في مصر، فسمع كلمة جارحة أو اتهاما باطلا أو خطابا عنصريا مسكونا بالاستعلاء والكراهية، وإذا اعتذر إليهم عن كل ذلك فإني أقول إن الذين يطلقون ذلك الخطاب المسموم لا يتحدثون باسم مصر، ولا هم الأبناء الحقيقيون «لأم الدنيا» التي فتحت أذرعها للجميع واحتضنتهم بغير من ولا أذى..

وإنما هم إفراز المراحل البائسة من تاريخنا المعاصر، التي استخرجت من البعض أسوأ ما فيهم. وذلك أمر مشين حقا، لكن له فضيلة واحدة هي أن تلك الأجواء كشفت لنا عن مدى فساد الأجواء ومعادن الناس، ما هو أصيل منها وما هو زائف ومفغوش.

هذا الكلام أقوله بمناسبة العبارات الجارحة واللغة المسفة والهابطة التي استخدمها أحد مقدمي البرامج التليفزيونية في تعليقه على شائعة زعمت أن بعض السوريين الذين جاءوا إلى مصر مؤخرا اشتركوا في مظاهرات تأييد الدكتور محمد مرسي، وهي شائعة لم تثبت صحتها، ولكنها راجت في بعض الأوساط الإعلامية، ففوجئنا بمن يتلقفها ويوظفها في تحذير السوريين وإهانتهم، على نحو فج يفتقد إلى أدنى أساليب اللياقة والأدب فضلا عن المروءة والشهامة.

وقد أثار الكلام عاصفة من الدهشة والاستنكار، تجلت في التعليقات التي حفلت بها وسائل التواصل الاجتماعي. وقد استلفت نظري تلك الأصوات فسمعت إلى الاستماع إلى الكلام الذي قيل، (واعتذر عن القناة لاحقا)، فلم أصدق ما سمعت، لأنه صدمني وسرب إلى شعورا بالغثيان والخجل.

جديد نسبيا ذلك الهجوم على السوريين الوافدين إلى مصر، وأغلب الظن أن إهانتهم بعد الاشتباه في أن بعضهم أيد الدكتور مرسي مرتبطة بحملة الاستباحة التي تعرض لها الرجل إبان رئاسته للدولة وبعدها، وهي ذات التهمة التي لاحقت فلسطيني

غزة التي تديرها حركة حماس، ذات الصلة التاريخية بحركة الإخوان، وبسبب تلك الصلة كتب على أهل القطاع أن يُعاقبوا جمِيعاً، ويُعرضوا لمختلف صور الإذلال والإهانة في مطارات مصر وموانيها، فضلاً عن معبر رفح بطبيعة الحال. لا أدفع عن خطأ ولا أقر أي إخلال بالقانون، لكنني لست مستعداً أن أستدرج وراء الشائعات ولا أن أصدق التقارير الملفقة والمزيفة، التي لا تكفي عن اتهام حماس بالضلوع في أي مشكلة تقع في مصر، دون أن يثبت ذلك على أي مستوى. يشجعني على تقرير ذلك أنني ناقشت مسألة الواقع التي أثبتت وسائل الإعلام على تسبتها إلى حماس مع أحد المسؤولين في جهاز المخابرات العامة، فكان رده أن ما تردد وسائل الإعلام في هذا الصدد هو في حقيقة الأمر «كلام جرايد»، ليس هناك ما يدعمه من الناحية الرسمية ولا ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد.

هذه الخلفية تستدعي ملاحظات كثيرة، بعضها يتعلق بخطاب البغض والحسن على الكراهية الذي يتبنّاه أغلب الإعلاميين في القنوات الخاصة، التي قدمت نموذجاً لانهيار قيم النزاهة والمعرفة واحترام الحقيقة. وهو الخطاب الذي أفرز لنا جيلاً من الإعلاميين الذين تناسوا قيم المهنة وتحولوا إلى «نشطاء». لا يكترون بتنوير المشاهد وإنما بتحريضه واستثارته. وفي سعيهم إلى ذلك فإنهم يستبيحون المخالفين ويسعون إلى تشويههم وأغتيالهم والتمثيل بهم.

الأمر الذي قدم لنا نوعاً فريداً من «الشبيحة» الجدد. الذين كونوا فرقاً للاغتيال السياسي والمعنوي تكاد تناقض شبيحة نظام الأسد في الجرائم التي ترتكبها.

إن ثمة انقلاباً شهده مصر في الوقت الراهن على قيم التسامح والتداول والقبول بالآخر، وهو ما يحدث تحت رعاية وقبول من جانب عدد غير قليل من ينسبون أنفسهم إلى المعسكر الحداثي والعلمي والليبرالي، وليت الأمر وقف عند ذلك الحد، لأن ذلك استصحب انقلاباً آخر في أخلاقيات التعامل مع الآخر، حتى بات الاختلاف سبباً لقطع الوسائل وتأجيج الخصومات واستباحة الكرامات والأعراض.

قدّمّوا إن الاختلاف لا يفسد للود قضية، لكن واقعنا نسخ تلك المقوله وتجاوزها، بحيث شاعت الخصومات ومظاهر القطعية في المجتمع بسبب الاختلاف.

وهو ما حدث حتى في داخل الأسرة الواحدة، وذلك كله بفعل ثقافة التحرير والكرهية وممارسات الشبيحة الجدد. وتلك عوالم إذا كانت قد سمت أجواء العلاقات الإنسانية بين المصريين بعضهم ببعض، فليس مستغرباً أن تسمم العلاقة بين المصريين وأشقائهم العرب. ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

السبيل

المصادر: